من الباقلاني إلى المستشرقين

هيثم الكسواني - الأردن

في القرن الرابع الهجري برع القاضي أبو بكر الباقلاني، القادمُ من بغداد، في مناظرةِ قساوسة النصارى وبطاركتهم، بل وملكِ الروم نفسه، وتمكّن بما حباه الله به من العلم والذكاء وسرعة البديهة من إظهار عوار معتقداتهم، وإقامة الحجة عليهم.

خلال إحدى هذه المناظرات بادر الباقلانيُّ بسؤال كبيرِ رجال الدين عندهم عن حال زوجته وأولاده، فَعَظم ذلك عليهم، وأنكروا سؤالَه، فقال: «**وما أنكرتم من كلامي؟! فقال الملك: إننا نُنزّه هؤلاء عن الصاحبة والولد. فقال القاضي: يا هؤلاء، تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد،.. ولا تستعظمونه لربكم**»[1]؟!

وبلغ من تأثير الباقلاني أن يطلبوا من مِلكهم إخراجَه من بلادهم، فقال كبيرُهم للملك:«**وتُخرج هذا العِراقِي عن بلدك من يومك -إن قدرت- وإلاّ لم آمن الفتنة به على النصرانية**»[2].

اليوم، يبدو المشهدُ مختلفًا بعض الشيء، فقد امتلأ الواقع الإسلامي بنظريات وأقوال دخيلة تشابه ما تبنّاه النصارى من التثليث، لا سيما من قبل الصوفية، الذين خرجوا لنا بنظريات مثل الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود.

لا شكّ أن بعضَ هذه «**الطّامّات**» أوجدها الصوفية قبل عصر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) ومِن هؤلاء الحلاج (ت٣٠٩هـ) الذي تولّى كِبر فكرة الحلول والاتحاد عند المسلمين، «**أول مَن قال بالحلول والاتحاد قبل الإسلام هم النصارى، قالوا: إنّ الله حلّ في عيسى فقالوا عبارتهم المشهورة: حلّ اللاّهوت في الناسوت ... وأول من قال بالحلول والاتحاد في الإسلام المتصوفة، فكانوا يقولون للمنقطع عن الدنيا المتوجه إلى الله تعالى قد يتحد مع الله تعالى، وأخذوا هذه الفكرة من رهبان النصارى لأنهم يجلسون داخل دور العبادة ويتفرغون لها ... وأول من أعلن هذه الفكرة منهم هو الحسين بن منصور الحلاج**»[3].

يقول عبد القاهر البغدادي عن الحلاّج: «والذين نسبوه إلى الكفر وإلى دين الحلولية حكموا عليه أنه قال: من هذّب نفسه في الطاعة، وصبر على اللذات والشهوات أرتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبقَ فيه من البشرية حظّ حلّ فيه روح الإله الذي حلّ في عيسى بن مريم، ولم يرد حينئذ شيئاً إلاّ كان كما أراد، وكان جميع فعله فعل الله تعالى. وزعموا أنّ الحلاج ادّعى لنفسه هذه الرتبة[4]».

أُعدِم الحلاّج بسبب زندقته، حينها تبرأ قسمٌ من الصوفية منه ومن أقواله، ربما يكون للخوف جزء من هذا «**التبرؤ**»، وربما غير ذلك من الأسباب، لكن السنوات اللاحقة أثبتت أن الصوفية لم يكتفوا بما قاله الحلاّج، بل زادوا عليه ووافقوا النصارى أكثر فأكثر، فخرج لنا شيخهم الأكبر ابن عربي (ت٦٣٨هـ) بفكرة وحدة الوجود، ونالَ من ثناء الصوفية وتقديرهم ما لم ينله شيخ آخر، فلقّبوه بالشيخ الأكبر، وسلطان العارفين.

وإذا كان الباقلاني قد ألجم القساوسة في زمنه، فإن المستشرقين **(تلاميذَ القساوسة)** طاروا فرحًا في زماننا بما كتبه الصوفية وألّفوه واخترعوه من عقائد شابهت عقائدهم.

وَجد المستشرقون في الفكر الصوفي ضالّتهم، لأنهم وجدوا مِن المسلمين أو المنتسبين للإسلام من يقول بمثل مقالتهم، وصاروا يرفعون في وجه المنكرين عليهم أقوال الحلاج وابن عربي، وغيرهما من زعماء التصوف، و«**الصوفية بنشرهم عقيدة الحلول قدموا للصليبيين أهل التثليث خدمات جليلة ما كانوا يحلمون بها، ووضعوا في طريق إفحام أهل التثليث أسلاكاً شائكة: فإذا قيل لهم – مثلاً -: أنتم تتناقضون بقولكم إن الثلاثة واحد. أجابوا بأن في المسلمين من يقول بمثله وهم الحلوليون. وهذا الأمر هو السر وراء اتجاه المستشرقين الصليبيين إلى نبش التراث الصوفي الحلولي وتحقيقه وطباعته منذ وقت طويل**»[5].

مِن هؤلاء المستشرقين برز الإنجليزي رينولد نيكلسون (ت ١٩٤٥م)، الذي استبشر بـ«**النظرية الحلاجية**»، واعتبرها فرصة لا تعوض لإعلان وحدة العقيدة بين المسلمين – ممثلين في الصوفية- وبين المسيحيين المؤمنين بالتثليث، ويقول: «الحلاج يقول بقدم النور المحمدي الذي انبثقت منه جميع أنوار النبوة، ولكنه يجد في عيسى –لا في محمد- المثال الكامل الذي وصل إلى مقام القربى فحلّ فيه روح الله، ففي عيسى على هذا الرأي روحان: روح إلهية قديمة، وروح بشرية حادثة، ويرى الحلاج أن عيسى خليفة الله الذي كان شاهدًا على وجوده، والمجلي الذي تجلّى الله فيه، وفيه كان وجوده»[6].

ومنهم أيضًا: الفرنسي لويس ماسينيون (ت ١٩٦٢م)، الذي تخصّص في الحلاّج، ودرسه دراسة مستفيضة، وترجم كتبه كالطواسين وديوان الحلاج إلى اللغة الفرنسية، وكتب له سيرةً مفصّلة بعنوان «**آلام الحلاج: شهيد التصوف الإسلامي**».

١- المناظرة العجيبة: وقائع مناظرة الإمام الباقلاني للنصارى بحضرة ملكهم، محمد بن عبد العزيز الخضيري، دار الوطن للنشر، ص ٤٦.

٢ - المصدر السابق، ص ٤٧.

٣ - تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد، جابر السميري وحسن بظاظو، ص ٩.

٤- الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، دار المعرفة، بيروت، ص ٢٦٣.

٥ - تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، محمد أحمد لوح، ٣١٥/٢.

٦ - المصدر السابق، ٤٩٣/١.